الغزالي وتصوفه[1]

الدكتور عبد الوهاب فرحات

جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

تمهيد:

قال أرنسست رينان و لم يَعْدُو الصواب: "**إن الأمة الإسلامية لم تنجب عقلا مبتكرا كعقل الغزالي**". والواقع إن المتتبع لتاريخ حياة الغزالي وتطوراتها وجملة إنتاجه الفكري في شتى ضروب المعرفة البشرية_ سواء الفقهية والكلامية والفلسفية والصوفية_ يدرك انه كان جديرا بالمنزلة التي وضعها فيها المؤرخون. فإذا كان قد تبوأ في تاريخ الفكر الإنساني عامة والإسلامي بخاصة مكانا عاليا. وتاريخ حياة الغزالي كما دونها في اعترافاته_ المنقذ من الضلال _ شاهد صدق على ما نقول.

1_ **نشأته ودراساته:** هو الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي. وقد ولد في منتصف القرن الخامس الهجري، أي عام 450ه/ الموافق 1059م، في مدينة "طوس"[2] من أعمال خراسان.

---

1 _انظر في ترجمته: ابن عساكر، **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، ط بيروت: دار الكتاب العربي 1991م، ص291-306؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس، ط بيروت: دار الفكر[د-ت] ج4، ص 216-219؛ تاج السبكي، **طبقات الشافعية**، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية [1999]، ج3، ص426_536. ؛ ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ط. بيروت: دار الفكر [د-ت] ج4، ص 10-13؛ يوسف القرضاوي، **الإمام الغزالي مادحيه وناقديه**، ط1، القاهرة: دار الوفاء 1988م.

2_ وهي مدينة مشهد الإيرانية حاليا.

وكان والد الغزالي رجلا فقيرا، ورعا لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف. ولهذا حدث لُبس في اسم الغزالي، إذ يرى بعضهم أن لفظه "الغزالي" تنطق بتشديد الزاي نسبة إلى صناعة والده. بينما يرى الآخرون أنها بزاي مخففة نسبة إلى قرية تدعى "غزالة" وهي من قرى طوس التي كانت تتألف من ألف قرية، في ذلك الحين.

وكان هذا الوالد محبا للفقهاء، دائم التردد على حلقاتهم العلمية. بل انه كان أيضا يخدمهم ويبالغ في خدمتهم. وكان شديد الولع بعلوم القوم إلى جانب الفقه.

وكان إذا سمع كلام الفقهاء بكي وتضرع إلى ربه عز وجل أن يرزقه ولدا، ويجعله فقيها واعظا. وقد استجاب الله تعالى له لكن الموت عاجله ولما يشتد عود ابنه بعد.

وقد أوصى هذا الأب بابنه هذا وبأخيه أحمد، صديقا له متصوفا، أوصاه بتعهدهما بالتربية الصالحة. وقد كان الوالد نادما على نفسه، حيث فاته تعلم الخط والجلوس للتلقي عن المعلمين، فأراد أن يعوض ذلك في ولديه.

اجتهد الرجل في تنفيذ وصية الأب على خير وجه حتى نفد ما تركه لهما أبوهما من المال، وتعذر عليه القيام برعايتهما والإنفاق عليهما، فألحقهما بإحدى المدارس التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، والتي كانت تكفل طلاب العلم فيها، فكان هذا سبب سعادتهما وعلو درجتهما، وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: **"طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله"**[1]. تفتحت عينا الغزالي إذن، على أب تقي ورع يحب العلم وإن لم يتعلم، ويحب العلماء ويضحي من أجلهم. كما

1- تاج السبكي: طبقات الشافعية، تح: مصطفى عبد القادر عطا، (مرجع سابق) ج3، ص10

تفتحت عيناه أيضا على صوفي تقي كريم النفس عالي الروح. ولا شك أن لهذين الرجلين انعكاسهما على شخصية الغزالي.

ثم كان وجوده بالمدرسة النظامية من أهم العوامل، التي ساعدت على تكوين شخصيته العلمية. وقد سميت هذه المدرسة "النظامية"نسبة إلى "نظام الملك "، الذي كان وزيرا للسلطان ألب أرسلان، مدة عشر سنوات. وبعد وفاة أرسلان، تولى نظام الملك أمر السلطنة.

وكان نظام الملك معروفا بتقديره العلم ورعايته العلماء، وكان ينفق ستمائة دينار تقريبا على المدارس، من أجل تأييد مذهب أهل السنة وتابع إنشاء المدارس وتعميرها، وخصص لها أوقافا، ضمانا لاستمرارها.

وقد حاول الوشاة من أهل الحقد والحسد، أن يوهموا "ملك شاه"بأن وزيره نظام الملك، قد أسرف في الإنفاق على طلاب العلم والصوفية وأن هذه الأموال تستطيع إقامة جيش يركز رايته في سور القسطنطينية. ولما عاتبة الملك، قال الوزير.

"وجيوشك الذين تعدهم للنوائب، إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان، وقوس لا ينتهي مدى مرماها إلى ثلاثمائة ذراع. وهم في ذلك مستغرقين في المعاصي والخمور والملاهي والمزامير والطنبور".

ثم قال له موضحا الفرق بين هذا الجيش وبين جيش الزهاد: "وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل، إذا نامت جيوشك ليلا، قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدي ربهم، فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون، وبدعائهم تبيتون، وببركاتهم تمطرون وترزقون". فاقتنع الملك بذلك. وتوفي الوزير نظام الملك عام 485هـ.

وفي المدارس النظامية، تلقي الغزالي العلم في نيسابور، لكنه تولى التدريس فيها بمدرسة بغداد. وقد درس الغزالي في هذه المدارس على يد أساتذة اشتهروا بالتدين والميل إلى التصوف. منهم " أبو المعالي" الذي صار فيما بعد إمام الحرمين.

وقد تعلم الغزالي في طوس مبادئ النحو والصرف واللغة، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة الفارسية. ولم يقنع بذلك بل سافر إلى جرجان ليتلقي فيها الدرس على يد نصر الإسماعيلي.

وبينما كان عائدا من جرجان إلى طوس، تعرض له جماعة من قطاع الطريق، واستولوا على ما كان معه من نقود ومتاع. وتوسل الغزالي إلى كبيرهم أن يعيد له الكتب، لأنه هاجر لمعرفة علمها. فقال له اللص: "كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم"

لكنه سلمه الكتب فعاد إلى" طوس"، إلا أن هذه الحادثة لم تمض سريعا، بل دفعته إلى استظهار ما يدرس، يقول—رحمه الله-: "**هذا مستنطق أنطقه الله يرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي**"[1]

وقدم الغزالي "نيسابور"عام473ه، وقد كانت يومئذ ملتقى العلماء والفقهاء حيث توجد مدرستها النظامية التي تزخر بكل المعارف والفنون. حيث يوجد أستاذها "إمام الحرمين الجويني "، الذي كان أستاذ عصره في العلوم العقلية والشرعية وهنا التقى الغزالي بالجويني، الذي شغف به كثيرا، كما وجد التلميذ الطلعة في المدرسة وفي أستاذها ما يروي ضمأه وما يشبع روحه، فدرس عليه الفقه والأصول والمنطق والكلام، كما تكونت على يديه الملكة

1- تاج السبكي: **طبقات الشافعية**، تح: مصطفى عبد القادر عطا، (مرجع سابق) ج3، ص418.

النقدية والجرأة العلمية، ذلك لأن أستاذه كان لا يرى أي حرج في نقد السابقين إذا وجد في كلامهم مجالا للنقد أو موضعا للتعقيب، فكان- رحمه الله- كما يقول مترجموه لا يلتزم إلا بالدليل ولا يخضع إلا للبرهان: "إذ لم يرض في شبابه بتقليد والده وأصحابه، حتى أخذ في التحقيق وجد واجتهد في المذهب والخلاف ومجلس النظر، وسلك طريق المباحثة، وجمع الطرق بالمطالعة والمناظرة والمناقشة، حتى أربى على المتقدمين وأنسى تصرفات الأولين"[1]

وإذا كان ذلك كذلك فإن هذا يعني أن الجويني -رحمه الله- أنزل المذاهب كلها في منزلة واحدة من النظر والاعتبار، غير متعصب لواحد منها، بحيث لا يكون عنده ميل إلى مذهب معين، من غير سند، إلى أن وصل إلى الحقيقة وأدركها وفي هذا المعنى يقول: "لقد قرأت خمسين ألفا في خمسين ألفا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها، وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى أهل الإسلام عنها كل ذلك في طلب الحق، **وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد**، والآن قد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق".[2]

ومن هنا حرص الغزالي على ملازمة أستاذه، حتى انتقل هذا الأستاذ إلى جوار ربه عام 478هـ؛ ولقد كانت مرحلة وجود الغزالي في نيسابور مرحلة تحول عظيمة في حياة إمامنا الفكرية، كما كانت من أخصبها غنى، حيث درس فيها المنطق وأصوله، وعرف مناهج الفلاسفة واختلافاتها، وتعلم الأصلين والجدل، وتهيأ للتأليف.

ولما توفي أستاذه الجويني بنيسابور، ضاق الغزالي ذرعا بالمقام في هذا البلد، فعزم على تركها قاصدا على "العسكر" ليلقي بنفسه في ساحة العلماء، حيث يتطلع إلى اختبار ما حصله من علم ومعرفة، ولن يتأتى له ذلك إلا بالمناظرة والجدل، وهناك يظهر تفوقه وبراعته في الحوار والمناقشة وغزارة مادته، فيما يتعرض له من تناظر، لدرجة تلفت النظر وتسترعي

1- تاج السبكي، **طبقات الشافعية**، تح: مصطفى عبد القادر عطا، (مرجع سابق) ج3، ص165.

2- المرجع نفسه ج3، ص 172.

الانتباه، ويعترف الجميع له بالفضل وعلو الكعب، ويطلب إليه "نظام الملك" أن يرحل إلى بغداد، بعد أن رأى بنفسه قوة عارضته في مجادلة مناظريه، ويستجيب الغزالي لهذا المطلب، فيتوجه إليها سنة 484ه، ويتولى التدريس بنظامية بغداد، وهناك يسطع نجمه أكثر، حتى أصبح علما مفردا يقصده الطلاب من كل فج عميق ومرمى سحيق، ومما يذكر أن مجلسه كان يحضره أكثر من أربعمائة طالب[1].

ويبقى الغزالي في بغداد قرابة أربعة أعوام، أخذت نفسه في أخريات هذه الفترة تتطلع إلى مخلص لها مما هي فيه من الشك الذي ظل يعتورها ولاتجد منه خلاصا، لاسيما وقد أيقنت أن ما حصله من الشهرة وذيوع الصيت بسبب علمه الغزير، ليس إلا من عوارض الدنيا، فعزم على مغادرتها إلى الشام، فأقام بها قرابة سنتين، اشتغل فيهما بتزكية نفسه، وتصفية قلبه ثم غادرها إلى القدس ومصر.

وتوجه بعد ذلك إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، عندما تحركت فيه داعية أدائها، ثم رجع إلى مسقط رأسه"طوس"، وظل بها لم يبرحها إلا إلى" نيسابور" مرة ثانية، ولفترة تقرب من سنتين أشتغل فيهما بالتدريس، ثم عاد بعدها إلى طوس، فبنى بها مدرسة للفقهاء، ومأوى للصوفية، وتفرغ للعبادة والذكر حتى توفي يوم الاثنين 14 جمادى الآخرة سنة505ه، ودفن بها بمقبرة "الطابران"[2].

رحلة البحث عن الحقيقة: آمن الغزالي بالحقيقة، وجند نفسه لخدمتها، وكان حب الحقيقة عنده فطرة وغريزة كأنما ولد بها، كما ولد بغريزة الأكل والتنفس وغيرها من الغرائز الضرورية، ونراه يذكر ذلك في ترجمته الذاتية، فيقول: **"ولم أزل في عنفوان شبابي، منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين على الآن، وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة**

1ـ ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (مرجع سابق)، ج4، ص 13.

2ـ ابن خلكان، **وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس، (مرجع سابق)، ج4، ص218.

هذا البحر العميق، وأخوض غمراته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع"[1].

وقد ساعده على ذلك استعداده الخاص، وموهبته المقتدرة، ولولا شعوره بذلك لما اختط لنفسه هذا المرتقى الصعب، وقد عبر عن ذلك بقوله: " **فقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أول أمري، وريعان عمري. غريزة وفطرة من الله، وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحطت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة، على قرب عهد بسن الصبا**"[2]. وهذا لعمري موقف المستقل في النظر المتحرر في الفكر، النابذ للتقليد.

وواضح أن حب الحقيقة عنده هو دافعه إلى الإطلاع والدرس والتحصيل، كما كان هو الحافز له على التغلب مما قاساه في استخلاص الحق بين سائر العلوم والمذاهب الشائعة في عصره بصرف النظر عن مكان وبيئة انتشارها.

والباحث الذي يكون من هذا الطراز، لابد له من مقياس يطمئن إليه، نفسيا وعقليا به توزن الآراء والمذاهب، ليقرر الرأي فيها في ضوء هذا المقياس، (**وهو العلم بحقائق الأمور**)ومحاولة معرفة هذه الحقائق في ميدان الدين بالاستناد إلى الفطرة، ولكنه وجد أنه لابد في بادئ الأمر من معرفة حقيقة العلم ومعنى العلم اليقيني، ومواصفاته بحيث نميز بهذه الواصفات والمعاني بين ما هو يقيني وما ليس كذلك حتى لا يختلط علينا الأمور وتتوه الحقائق ويختفي اليقين وسط زحام الباطل وغلبة الشكوك.

1ـ الغزالي، **المنقذ من الضلال**، تح: عبد الكريم المراق، ط1، تونس: الدار التونسية للنشر1984 ، ص25.

2ـ المصدر نفسه، والصفحة.

وفي هذا المنهج للبحث عن اليقين نجد الغزالي يقول: **"إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه العلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا، والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا ولا انكارا"**[1].

وإذا وضح أن العلم اليقيني بهذه المثابة، وأنه في ضوئه تتحدد درجات المعرفة، فبالتالي فإن المشاكل الفكرية تكون قد حلت، ذلك لأنه بظهور هذا المقياس لا يكون على الناظر إلا أن يسبر به ما بين يديه من مسائل ليضعها في درجتها من المعرفة، والغزالي هنا يولي العلم اليقيني اهتماما بالغا، نظرا لما له من مكانة عليا بين أنواع العلوم الأخرى، حتى أنه رفض التشكيك في قيمته، ولو كان ذلك بالتجارب المشاهدة، يقول في ذلك: **"فإذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا، بل الثلاثة أكثر، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأما الشك فيما علمته فلا"**[2].

ويبدو أن هذه الثقة التي أولاها الغزالي للبدهيات، إنما كانت في مرحلة سابقة وتالية لمرحلة الشك التي عاشها لذا رأينا أنه لم يكد يلج هذه المرحلة حتى انتهى إلى رفض الثقة بالمحسوسات، على أساس أن الحواس تخدع فترى الأشياء على غير ما هي عليه، ولا يصح أن نثق في شيء يخدعنا، والذي يكشف خطأ الحواس هو عقلنا، فلعله لا توجد ثقة إلا في العقليات التي هي الأوليات، ولكن على أي أساس تستند ثقتنا بهذه المعارف، وكيف نأمن أن تكون ثقتنا بها من قبيل ثقتنا بالمحسوسات؟؟يقول الغزالي مصورا هذه القضية: **"فقال**

1ـ المصدر نفسه، ص27.

2ـ المصدر نفسه، ص27 ـ28.

الحواس: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر، إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته"[1].

ويرى الغزالي أن نفسه توقفت أمام هذا الاعتراض و لم تجد جوابا، وازداد الإشكال أمام الغزالي بسبب ظاهرة الأحلام، لأن الإنسان يرى أمورا، ويعتقد أن لها ثباتا واستقرارا، ولا يشك فيها وهو نائم، فإذا استيقظ تبين له أن ذلك كله لم يكن له أصل ولا حقيقة، فقال في نفسه كيف يأمن الإنسان أن يكون جميع ما يعتقده في اليقظة بحس أو عقل هو بالإضافة إلى حالة اليقظة صحيح، لكن يمكن أن تطرأ حالة أخرى تكون نسبتها إلى اليقظة كنسبة اليقظة إلى النوم، فإذا طرأت تبين للإنسان أن جميع ما يتوهمه بعقله خيالات لا أساس لها. أو أن تكون تلك الحالة ما يزعمه الصوفية من أنهم يشاهدون أحوالا لا توافق هذه الأحوال التي نعقلها ونحن في حالتنا العادية، ولعل الحياة التي نحن فيها نوم وحلم بالإضافة إلى الحياة التي بعد الموت، حيث تبدو الأشياء الإنسان وتظهر له على خلاف ما كان يشاهدها عليه.

ويذكر الغزالي أنه لما خطرت له هذه الخواطر، وانقدحت في نفسه، حاول أن يجد لها جوابا، فلم يتيسر له ذلك، و لم يكن يمكن التغلب على الشك إلا بالدليل النظري، ولكن إقامة الدليل النظري مترقفة على تركيب علوم أولية، لكن الشاك لايسلم بالعلوم البدهية،

1ـ المصدر نفسه، ص31.

وعلى هذا فإن تركيب الدليل أضحى مستحيلا. ويذكر الغزالي أن هذا الداء أعضل، ودام قريبا من شهرين، أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال، لا بحكم المقال. [1]

لكن كيف خرج الغزالي من هذا الشك؟ وكيف وصل إلى اليقين؟ أو كيف حصل على الحقيقة وامتلكها؟؟.

يوضح الغزالي لنا ذلك فيقول: **"ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة"**[2].

ويستمر الغزالي في التأكيد على أهمية **"التجربة الدينية الحية"** حتى جعلها مصدر المعارف كلها، يقول في ذلك: "إن العلوم ليست ضرورية، وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال، تختلف الحال في حصولها، فتارة تهجم على القلب، كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم، فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل، يسمى إلهاما، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا، ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد، ينقسم قسمين: ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل ؟، وما يطلع معه على السبب الذي استفاد منه ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب، والأول يسمى إلهاما ونفثا في الرُّوع، والثاني يسمى"وحيا" ويختص به الأنبياء، والأول يختص به الأولياء الأصفياء، والذي قبله_وهو المكتسب بطريق الاستدلال_ يختص به العلماء"[3].

1_ المصدر نفسه، ص32.

2_ المصدر نفسه: والصفحة.

3_ الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 2002م، ج3، ص25_26.

والغزالي من المفكرين الكبار الذين يجعلون القلب أداة للمعرفة من أدوات المعرفة، والقلب عنده، ليس تلك اللحمة المعروفة، المودعة من الجانب الأيسر من صدر الإنسان، وإنما هو اللطيفة الربانية الروحانية التي هي حقيقة الإنسان، وقد يكون لها بالقلب الجسماني تعلق، إلا أن عقول الناس تحيرت في إدراك وجه العلاقة بينهما. [1]

ويرى الغزالي أن المعرفة بالله فطرية[2]، وهي مركوزة في القلب "فكل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق، لأنه أمر رباني شريف، وهو محل الأمانة التي حملها الله له، وهي المعرفة والتوحيد.

وهذا ما بينه لتليمذه" أبي بكر بن العربي"[3] المالكي حينما سأله إياه في بغداد عام486ه، يقول ابن العربي: "فسألته ـأي الغزاليـ سؤال المسترشد عن عقيدته، المستكشف عن طريقته، لأقف من سر تلك الرموز، التي أومأ إليها في كتبه، على موقف تام المعرفة، وصفق يجاوبني، مجاوبة الناهج لطريق التسديد، للمريد، لعظيم مرتبته، وسمو منزلته، وما ثبت له في النفوس من تكرمته، فقال لي من لفظه، وكتبه لي بخطه: **إن القلب إذا تطهر عن علاقة البدن المحسوس، وتجرد للمعقول انكشفت له الحقائق، وهذه أمور لا تدرك إلا بالتجربة لها عند أربابها، بالكون معهم والصحبة لهم، ويرشد إليه طريق من النظر وهو أن القلب جوهر صقيل، مستعد لتجلي المعلومات فيه، عند مقابلتها عريا عن الحجب كالمرآة في**

1ـ الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص4.

2- المصدر نفسه، ج3، ص26.

3- فقيه مالكي، ومحدث مشهور ولد سنة 468 ه، رحل إلى المشرق عام485ه، والتقى هناك بالغزالي. من أهم تآليفه: "عارضة الأحوذي في شرح سنن الترمذي"، و"أحكام القرآن"، و"القبس في شرح الموطأ"، و"العواصم من القواصم"، توفي عام543ه. أنظر في ترجمته: محمد بن مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات** المالكية، ط بيروت: دار الفكر [د. ت]، ص136ـ140؛ ـ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (مرجع سابق)، ج4، ص 141ـ142.

ترائي المحسوسات عند زوال الحجب، من صدا لائط [1]، أو ستر من ثوب أو حائط، لكنه بتراكم الآفات عليه، يصدأ حتى لا يتجلى فيه شيء، أو يتجلى معلوم دون معلوم، بحسب مواراة الحجاب له، من ازورار، أو كثافة، أو شفف، فيتخيل فيها مخيلة، غير متجلية، كأنه ينظر من وراء شف، ألا ترى إلى النائم إذا أفلت قلبه من يد الحواس، وانفك من أسرها كيف تتجلى له الحقائق، تارة بعينها، وأخرى بمثالها"[2].

ودور العارف إنما يكون في إزالة الحوائل، حتى تنعكس العلوم، الموجودة في اللوح المحفوظ على مرآة قلبه وتطّرد نسبة الانعكاس مع نسبة صفائه. وهذه التصفية تكون كسبية كما هو شأن العلماء المستبصرين، وقد تكون وهبية، كما هو الحال عند الأنبياء والأصفياء، لأن الألطاف الإلهية هي التي تتولى عنهم ذلك.

ويزيد الغزالي هذه المسألة بيانا بمثال ينتزعه من الحس يبين فيه كيف يكون القلب أداة للمعرفة الصوفية، فيقول: **"لو فرضنا حوضا محفورا في الأرض احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم، وقد يكون أكثر وأغزر، فذلك القلب مثل الحوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار، وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات، حتى يمتليء علما، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر، ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله"[3].**

1ـ أي تعلق، ولافلانا بسهم أوعين أصابه به.

2ـ ابن العربي، **العواصم من القواصم**، تح: عمار طالبي، ط1. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع [د. ت]، ج2، ص29ـ30.

3- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مرجع سابق)، ج3، ص28.

وبهذا العمل الفذ استطاع الغزالي، أن يطور نظرية صوفية تصبُّ جلَّ اهتمامها على معرفة الحقيقة، بل حصرًا على معرفة الله سبحانه. وبذلك يكون قد أسهم في تمهيد السبيل أمام ابن عربي، وكذلك أمام مدرسته التوحيدية. فمما هو مؤكد أن الشيخ الأكبر قد جعل للإنسان، أو لوجوده، غايتين تتكاملان في غاية عليا: معرفة الله وبلوغ الكمال – إذ لا كمال إلا بمعرفة الله سبحانه.

2 ـ **إنتاجه الفكري:** الغزالي مؤلفا: للإمام الغزالي رحمه الله تعالي، مؤلفات كثيرة جدا، تربو على أربعمائة ما بين كتاب كبير مثل الإحياء، وبين فتوى في رسالة صغيرة ومن هنا سمي "أمير الكتاب"، وقد تجلّت في شخصيته تلك الظاهرة الموسوعية التي كانت سمة واضحة لدى معظم علماء المسلمين، فقد ألف في علم الكلام، وتآليفه مشهورة في هذا الفن نخص منها: "الاقتصاد في الاعتقاد"، و"إلجام العوام عن علم الكلام"، و"قواعد العقائد"، و"الأربعون في أصل الدين"، و"فضائح الباطنية" كما ألف الغزالي في علم مقارنة الأديان ووسم كتابه فيه ب" القول الجميل في الرد على النصارى بصريح الإنجيل" كما له في علم الجدل "المنحول والمنتحل في علم الجدل "، أما كتبه في الفقه فحدث ولاحرج، نذكر منها: "الوسيط" و"البسيط"و"الوجيز"، و"الخلاصة في الفقه"؛ أما في أصول الفقه فنذكر: "المنحول في علم الأصول"، وكان قد صنفه في مطلع شبابه وكان شافعيا متحمسا، وتناول فيه الأحكام الشرعية والأحكام التكليفية، وبيّن الواجب والمندوب والمحظور والمكروه، كما تحدث عن الإجماع والقياس والترجيح، وتناول الفتوى، والاجتهاد والتقليد وأحكامهما، ثم ذكر سبب تقديمه مذهب الشافعي على بقية المذاهب، وقد ظهر هذا الكتاب محققا على يد الدكتور"محمد حسن هيتو"، وكتاب" المستصفى" فرغ من تصنيفه في سادس المحرم سنة ثلاث وخمسمائة، هذا الكتاب الذي قال فيه ابن خلدون: "وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لإمام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من الأشعرية، وكتاب العمد لعبد الجبار

وشرحه لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة وكانت الأربعة قواعد هذا الفن"[1]. و"شفاء العليل في القياس والتعليل": وتناول فيه مسائل القياس والعلة والدلالة، كما ذكر شروط القياس وكيفيته، وذكر بعض المسائل التي توضح ذلك. وله في **السياسة الشرعية**: "التبر المسبوك في نصيحة الملوك"وهو من أجل ما كتب في الفكر الإسلامي في الفكر السياسي قديما. ومنها في **المنطق**"محك النظر" و"معيار العلم" و"القسطاس المستقيم" ؛ وفي **الفلسفة** له" تهافت الفلاسفة"و "مقاصد الفلاسفة" وفي **أدب الاعترافات** "المنقذ من الضلال"الذي ترجم فيه سيرته الذاتية وهو عمل شبيه إلى حد بعيد بعمل" القديس أغسطين" الذي تجرع من مرارات موجات التنقل بين المذاهب والأديان والاستغراق التام في شهوات الجسد، والسقوط في مهاوي الشك والإلحاد كما حكاها في كتابه "الاعترافات". أما في **التصوف والرقائق** فنخص "المضنون به على غير أهله"، و"المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى "و"مشكاة الأنوار"، و"إحياء علوم الدين" وقد اشتمل على أربعة أقسام رئيسية هي: **العبادات، العادات، المهلكات، المنجيات.**

ويجعل الغزالي تحت كل قسم عشرة كتب أو فصول، ويشمل قسم **العبادات** الكلام عن العلم وقواعد العقائد والعبادات. وآداب تلاوة القرآن، والأذكار والدعاء وترتيب الأوراد.

ويشمل قسم **العادات**، الآداب المتعلقة بالأكل، والزواج، والكسب، والحلال والحرام، والصحبة، والعزلة، والسفر، والسماع. والوجد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما قسم **المهلكات** فيعني به الغزالي كل ما يتعلق بالنفس وشهواتها الحسية وآفاتها المعنوية كالغضب والحقد والحسد والبخل والرياء والغرور وما إلى ذلك.

1- ابن خلدون، **المقدمة**، ط. بيروت: دار الجيل، (د. ت)، ص504.

ويأتي بعد ذلك القسم الرابع الأخير الذي يسميه **بالمنجيات**، ويقصد الغزالي بها ما يعرف عند الصوفية بالمقامات والأحوال، ويعرض فيه للتوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والأنس والرضا، ويتحدث فيه أيضا عن معاني النية والصدق والإخلاص والمراقبة والمحاسبة والتفكر والموت.

والواقع إن هذا الكتاب يعد مكتبة إسلامية قائمة بذاتها لا يستغني عنها يقول فيه ابن خلكان بحق: "وهو من أنفس الكتب وأجملها"[1].

والحقيقة إن إنتاج الغزالي يمثّل عالما قائما بذاته. وهذا يعني أنه على الرغم من تعدد مجالاته وتنوعها إلى حد كبير، فإن له معالمه المتميزة، والذي يعيش طويلا مع هذا الإنتاج يكاد يصبح صديقا لحجة الإسلام، والسبب في ذلك أن الغزالي في أحيان كثيرة يعنّ له أن يعرض لنا حياته، أو يخبرنا عن بعض مؤلفاته السابقة، أو يظهر لنا ما يزمع الكتابة فيه فيما بعد.

والمتأمل في مصنفات الغزالي يجد أن الرجل قد أحاط بثقافات عصره على اختلافها واستطاع أن يلم بها إلماما واسعا.

وهو كفقيه ينتمي إلى الشافعية، وكمتكلم إلى الأشعرية وهو إلى جانب تمكنه من العلوم الشرعية متمكن أيضا من الجدل والمنطق والفلسفة.

وقد تجلّت في شخصيته تلك الظاهرة الموسوعية التي كانت سمة واضحة لدى معظم علماء المسلمين، فقد ألف هذا الرجل في جميع فنون العلم تقريبا.

وقد أفاد الغزالي كثيرا من دراسته للفقه وتمكنه منه في مناقشته أفكار ودعاوى الفرق المنحرفة وغلاة الصوفية، وإبطال عقائد الباطنية وغيرهم والرد على مزاعمهم وافتراءاتهم، وكان لها أكبر الأثر في تشكيل عقله ووعيه، وتوجيه تصوفه ليقترب كثيرا من منهج الوراث

1ـ ابن خلكان، **وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس، (مرجع سابق)، ج4، ص218.

الكاملين المحمديين، ويبتعد عن الوقوع في دائرة الغلو والشطط والإغراق في المبالغة التي وقع فيها كثير من المتصوفة.

خصائص آثاره:

بقي في الأخير أن نشير إلى أهم الخصائص التي تميز أسلوب الغزالي في التأليف وتلفت نظر من يقرأ له فمن ذلك:

أ- **البساطة والوضوح:** ولعل أهم خاصة امتاز بها أسلوب الغزالي وهي البساطة والوضوح، ومجانبة التعقيد، ومراعاة الحال والمقام. فهو يعلم الخواص الحق والقسط، ويدعو أهل الجدل والمراء بالتلطف، ويعظ العوام فيدعوهم إلى الله تعالى بالموعظة الحسنة.

ب- إجادة الصنعة: وميزة أخرى يلحظها الدارس في كتب الغزالي وهي إجادته للصنعة ويتضح هذا في الإحالة على كتبه الأخرى من داخل كتبه، وهذا برهان على شدة عنايته بمؤلفاته، ولا يلبث الإنسان أن يقرأ كتابا من كتب الغزالي، حتى يتعرف على جملة من أسماء كتبه التي يشير إليها، وهو ما دعانا أن نطلق على طريقته هذه في التأليف " إجادة الصنعة " إن صح هذا التعبير.

ج- تأنقه في إيراد عناوين كتبه: وأخرى يمكن للمتأمل أن يلمحها في كتب الغزالي هي عنايته باختيار عناوين كتبه وأسمائها وتأنقه في ذلك مع غلبة طابع الجناس والسجع الذي غلب في عصره.

د - إهداءه كتبه إلى أصدقائه وتلاميذه: وميزة أخرى بدت في مؤلفات الغزالي هي اختصاصه بعض زملائه ممن عرف عنهم بالصلاح والتقوى بإهداء بعض مؤلفاته إليهم، كما فعل مع نظام الملك الذي " التبر المسبوك في نصيحة الملوك "، وكذلك فعل مع أخيه أحمد حين أهداه كتابه "المضنون به على غير أهله"[1].

1ـ عبد الرحمن بدوي، **مؤلفات الغزالي**، ط2، الكويت: وكالة المطبوعات1977م، ص151.

ويمتاز منهج الغزالي في التأليف باعتماده على "الخطابيات"من أجل إصلاح القلوب، حين يؤكد فكرة ما، أو قيمة معينة بذكر آيات وأحاديث وأخبار وآثار، ترغب في فضلها، ويتابع تأثيره على القارئ بذكر قصص وحكايات، للاستيلاء على فؤاد القارئ، كما فعل مثلا في شرح فضيلة الزهد، إذ بين حقيقته وفضله ودرجاته وأقسامه ومواطنه في الملبس والمسكن والأثاث، ثم بيان علامة الزهد.

وفي مؤلفاته أيضا، نجده يشرح أولا المذهب الذي يعرض له بالنقد، ثم يرد عليه نقطة نقطة، وفي وضوح شديد، يقول الغزالي موضحا لهذا النهج الذي اختطه لنفسه: **"فعلمت: أن ردّ المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه، رمي في عماية"**[1]. ويتضح هذا في كتابيه: " مقاصد الفلاسفة"و" تهافت الفلاسفة" وكذلك فعل في كتابيه" القسطاس المستقيم"، و"فضائح الباطنية".

ويمتاز منهجه أيضا في التأليف، باستخدامه "للخيال "حيث يحسن ويقبح بطريقة فنية تشد العقول والقلوب.

وميزة أخرى يلحظها المتأمل في مصنفات الغزالي أيضا وهي اعتماده على إيراد الشواهد الدينية، كما غلب على أسلوبه التكرار، حيث يحكي فكرة أو مثالا عدة مرات لفظا ومعنى، وهو نوع من ترابط المؤلفات، يشير إلى وعي الكاتب بالمنهج الذي يسلكه.

3ـ آراؤه ومذهبه:

موقفه من علوم عصره: حدد الغزالي أصناف الطالبين للحقيقة في فرق أربع:

المتكلمون: وهم الذين يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

1ـ الغزالي، **المنقذ من الضلال**، تح: عبد الكريم المراق، (مصدر سابق)، ص42.

الباطنية: وهم الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

الصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة. وأهل المشاهدة والمكاشفة.

وموقف الغزالي من كل هذه الفرق هو الذي سيبرز ملامح" **منهجه النقدي**" [1]، وتفاوتت هذه المواقف بتفاوت درجة كل فريق من اليقين بحسب ما يرى، ولا يمكن أن يقال في هذا المقام: إن الحق دائر بين هذه الفرق، بحيث إذا تعين في واحدة منها انتفى عن باقيها، ويكون انتفاؤه عنها معنيا به ما يقابل الحق، وهو الضلال، ذلك لأنها فرق تعمل في دائرة الإيمان بأصول العقيدة. وما يستدرك به على بعضها إنما يكون غير وارد على هذا الأصل، بل على المنهج الذي يطلب به الحق، ولعل هذه المسألة تكون واضحة أمام الباحثين في الفكر الإسلامي، حتى تخف حدة الصراع البادي بين الفرق والمذاهب مما يعطي آثارا سلبية على هذا الفكر، هو في الواقع برئ منها إلى حد بعيد، ذلك لأن الخلاف بين الآراء والمذاهب لا يجاوز الخلاف في التصور وفي الفهم في القضايا التي تطرح للبحث، وقد لا يصل في كثير من الأحيان إلى أن يكون خلافا حقيقيا. من ثم نرى أن الباحث المخلص ينبغي أن يعني بتقريب وجهة النظر، بين الآراء المتخالفة، ما وجد إلى ذلك سبيلا، وحينئذ ستكون الأحكام دائرة حول الصواب والخطأ في الفهم والتصور، لا حول الإيمان والكفر، طالما أن أصول العقيدة مستقرة في نفوس المتحاجين، ولم يظهر في كلام أحدهم ما ينافي أصلا من أصولها. لنا سيتبين لنا حين نعرض لموقف الغزالي من الفلاسفة، أنه قد غالى في أحكامه، حين أدخلها في دائرة الإيمان والكفر.

1ـ لمزيد من التوسع في هذا الجانب ينظر: محمد الشريف طاوطاو، **النزعة النقدية عند أبي حامد الغزالي**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في قسم الفلسفة، جامعة منتوري قسنطينة، 2000م

الغزالي وعلم الكلام: بدأ الغزالي بدراسة علم الكلام، لكنه لم يجد فيه ما يرضي حاجة عقله، وبخاصة أن علم الكلام في نظره ينبني على مقدمات مقبولة وغرضه الرد على الخصوم، على حين غرض الغزالي كان معرفة الأساس اليقينية لوجهة النظر التي يبحث عنها طالب المعرفة، بصرف النظر عن الرد عن المخالفين لأن الأساس عنده هو معرفة الحق في نفسه بصرف النظر عن قائله أو مصدره يقول الغزالي: **"والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين[علي بن أبي طالب]ــ رضي الله عنه ــ حيث قال: لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله، والعاقل يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول. فان كان حقا قبله، سواء كان قائله مبطلا أو محقا"**[1].

ويقرر الغزالي فيما يتصل بعلم الكلام أنه صادفه **علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي**[2] باعتبار أن غاية الغزالي هي إدراك الحقيقة الدينية إدراكا يقينيا لا يبقى معه ريب، في حين أن غاية علم الكلام هو حفظ عقيدة الإنسان من الشكوك والبدع. وكما رفض الغزالي علم الكلام، رفض أيضا اتجاه الباطنية.

الغزالي والباطنية: ويعرفون أيضا ب "التعليمية"[3]، ويزعمون أنهم أصحاب التعليم المخصوصون بالاقتباس عن الإمام المعصوم. وهو المعلم عندهم، ويرد عليهم الغزالي قائلا إن المعلم المعصوم عندنا هو النبي محمد ﷺ، فإن قالوا إن النبي ميت يرد عليهم بأن معلمهم الذي

1ــ الغزالي، **المنقذ من الضلال**، تح: عبد الكريم المراق، (مصدر سابق)، ص62.

2ــ المصدر نفسه، ص37.

3- الباطنية فرقة نشطت في النصف الثاني من القرن الخامس، وكان أول ظهورهم في وهاد "مازندران" ثم تمكن أحد دعاتهم وهو الحسن بن الصباح أن يستحوذ على قلاع كثيرة كان أولها قلعة آلموت (أو عش النسر) المنيعة في جبال مازندران بالديلم، استولى عليها عام(483ه)، وأقام فيها دولة دعيت بدولة الحشاشين، انبرى الإمام حجة الإسلام الغزالي لتبيان آرائهم في كتابة "القسطاس المستقيم" ثم انبرى لنقضها في كتابه "فضائح الباطنية" أو "المستظهري". ولمزيد من التوسع ينظر: د. جميل أبو العلا: الباطنية وموقف **الإسلام منهم**، ط1. القاهرة: دار المعارف 1979م.

يزعمونه غائب[1]. وقد رد الغزالي على الباطنية في مؤلفات خصصها لهذا الغرض مثل كتاب"المستظهري" أو" فضائح الباطنية"، وكتاب "حجة الحق"، وكتاب "مفصل الخلاف"، وفي كتاب" الدرج المرقوم بالجداول"، وفي كتاب "القسطاس المستقيم"هذا الكتاب الأخير الذي يقول عنه الغزالي: **"ومقصوده: بيان ميزان العلوم، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم، لمن أحاط به"[2].**

والحقيقة أن ردود الغزالي على هذه الفرقة كانت قوية وحاسمة، تتسم بالذكاء وسعة الأفق وقوة الحجة وإعمال العقل على عكس ما ذهب إليه" هنري كوربان" الذي ادعى أن الغزالي كان ضيق الأفق حين هاجم فكرة هي في جوهرها فكرة تأويلية[3]، وغاب عن ذهنه الآفاق البعيدة التي تهدف إليها هذه الفرقة، حيث كانت تسعى إلى تعطيل الشريعة بإنكارها للمفاهيم الدينية التي توارثتها الأمة، وتفسيرها للكلمات الشرعية والمصطلحات الدينية حسب الأغراض والأهواء، والفصل بين الظاهر والباطن بحيث يمكن القول دون منازع أنها تمثل" **ثورة على النبوءة المحمدية" الغزالي والفلسفة:**

وبعدما تعمق الغزالي في دراسة الفلسفة كما يبدو ذلك جليا في كتابه" مقاصد الفلاسفة" كرَّ عليهم بالنقض للأساس الذي بنوا عليه مذاهبهم في كتاب سماه "تهافت الفلاسفة" مستخدما سلاحهم نفسه_ العقل والمنطق _، وهذه المهمة التي ندب نفسه لها لم ينهض لها مفكر إسلامي من قبل، كما يقرر الغزالي نفسه، ولعل الدافع وراء ذلك هو ما استقر في نفسه من قصور المنهج العقلي في الوصول إلى الحقيقة، وأساس ذلك أن أدلة الفلاسفة ليست كافية لإثبات ما يقولونه في معرفة الأمور التي من وراء الحس، وهي الأمور الإلهية بمجرد التفكير الذاتي، ومن ثم نرى الغزالي في أحيان كثيرة يضع آراء الفلاسفة في

---

1 _الغزالي، **المنقذ من الضلال**، تح: عبد الكريم المراق، (مصدر سابق)، ص71.

2_المصدر نفسه، ص77.

3_كوربان، **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، تر: محمد قبيسي، بيروت: 1966م، ص275.

صورة قياس منطقي على طريقتهم ويبين فساد هذه الصورة، وهو في كثير من الأحيان يكشف التناقض في آراء الفلاسفة ويقول إنه لا يريد إثبات رأي معين يؤمن به، وإنما يريد أن يبين ضعف أدلة الفلاسفة وتناقضها[1]، إذ ما من دليل عقلي إلا ويدخل عليه الشبهة، وكل واحد من الفلاسفة عنده دليل مخالفه شبهة لمخالفه لكونه خالف دليل هذا الآخر، فعين أدلتهم كلهم هي عين شبهاتهم، **وهذه هي نقائض العقل** كما يقررها الفيلسوف الألماني كانط، فأين الحق وأين الثقة.

وأصل الفساد يؤكد الغزالي إنما وقع من حيث اعتقاد الفلاسفة في أنفسهم من أنهم وحدهم أهل الرأي والنظر واعتبارهم الدين منظومة فكرية، وغاب عنهم أن الدين حقائق واقعية وجدانية وإن شئت قلنا تجربة حية لها مجال حقيقي في ميدان المعرفة الإنسانية لا يقل أهمية عن التجارب الأخرى.

وعلى هذا الأساس تكون الرياضة والمجاهدة وما تنتجه من معارف وعلوم مجالا حقيقيا وواقعيا ككل ضرب آخر من ضروب التجربة الإنسانية.

وهكذا وقف الغزالي بموقفه هذا سدا منيعا في وجه الذين يريدون عقلنة الدين وإقامته على أسس منطقية صرفة، مما يمكن أن يقود الأمة بالتدريج إلى ضرب من التفكير الفلسفي المتهور الذي لو سيطر لانقطعت صلة الأمة عن منابع الدين الأولى، وخضعت الأمة للقياسات والآراء.

ولم يقف الغزالي عند حد نقد المسلك العقلي الذي اعتمده الفلاسفة أنما تجاوزه إلى نقدهم في تفاصيل ما ذهبوا إليه، حيث انتقدهم في إنكارهم لعلم الله بالجزيئات، وقولهم بقدم العالم، ونفي المعاد الجسماني.

1ـ انظر: **تعليقات** أبي ريدة ضمن **هوامش** كتاب: دي بور، **في تاريخ الفلسفة الإسلامية**، تر: محمد أبو ريدة، ط القاهرة: دار النهضة العربية، [د، ت]، ص271.

ومع النقد اللاذع الذي يوجهه الغزالي للفلاسفة ومن نحا نحوهم من أصحاب النظر العقلي، فإنه لا يخطئهم بإطلاق بل يرى في كلامهم الكثير من الكلام الجيد المقبول، يقول: فالرياضيات مثلا علوم برهانية لا سبيل إلى إنكارها بعد معرفة براهينها، وإن كان قد يكون لها تأثير سيء، وذلك لأن من يعرفها يظن أن كل الفلسفة من هذا النوع البر هاني، فيقبل كل آراء الفلاسفة من غير نقد[1].

ومسائل المنطق أيضا لاشيء منها ينبغي أن ينكر، وكذلك الطبيعيات، وهي البحث في أجسام هذا العالم، ويرى الغزالي أن هذا البحث ليس عليه غبار، ولكن توجد في العلوم الطبيعية عند الفلاسفة مسائل لابد من نقدها ورفضها مثل قول الفلاسفة بالعلية، أي تلازم الأسباب والمسببات، على نحو مطلق أشبه بالحتمية والجبرية[2].

ويرى الغزالي أن ما وضعه الفلاسفة في السياسة والأخلاق لا ينبغي الإنكار عليهم فيه، وبخاصة إذا لم يعارض الأصول، والفلاسفة في رأيه اقتبسوا كثيرا من ذلك أخذا من الأديان وأهلها[3].

أما الإلهيات فيرى الغزالي أن فيها أكثر أغاليط الفلاسفة، وهم في رأيه لم يقدروا على الوفاء فيها بالشروط التي اشترطوها في المنطق، ولقد حصر الغزالي خطأ الفلاسفة في هذا المجال في عشرين مسألة، منها ثلاث مسائل كفرهم فيها وهي قولهم بقدم العالم، وإنكارهم للبعث والثواب والعقاب، وإنكارهم لعلم الله بالجزئيات. ولمن يرد أن يقف على تفصيل نقد الغزالي وعرضه للمسائل العشرين تلك، فيمكنه الرجوع إلى كتابه (تهافت الفلاسفة)[4]

1ـ الغزالي، **المنقذ من الضلال**، تح: عبد الكريم المراق، (مصدر سابق)، ص50.

2ـ المصدر نفسه، ص52ـ54.

3ـ المصدر نفسه، ص61.

4ـ المصدر نفسه، ص55.

والحقيقة أن أهمية ردود الغزالي على الفلاسفة تكمن في نقده لمنهجهم الذي عولوا عليه وظنوه مساويا للشرع، أو حتى بديلا عنه- كما عند البعض- وأثبت بجدارة واستحقاق أن الفلسفة مجموع أفكار وتخيلات وقياسات وتخمينات لا دليل لها ولا سند، وبذلك خدم حجة الإسلام الدين خدمة جليلة لا تنكر وطعن الفلسفة في صميمها طعنة نجلاء أردتها إلى الوراء، ولم يكتف الغزالي بنقد الفلسفة فحسب، وإنما أراد التأكيد على إعطاء التجربة الدينية والمتمثلة في الممارسة الصوفية بعدها الحقيقي الذي يسعى إلى اكتشاف الحقيقة الكلية لهذا العالم التي يعجز العقل عن بلوغها.

تصوف الغزالي: بعد أن فحص الغزالي مذاهب المتكلمين والفلاسفة والباطنية انتهى إلى إيثار طريق التصوف، واعتبر الصوفية وحدهم أرباب الحق، ويصف الغزالي طريقة الصوفية بأنها تتم بعلم وعمل، وحاصل علمهم التخلق. وكان طلبه لعلم الصوفية من كتبهم أيسر عليه بكثير من العمل، ثم ظهر له بعد ذلك أن اخص خواص الصوفية ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات، فالتصوف في رأيه إذن تجربة ومعاناة حقيقية. ويضرب الغزالي لذلك مثلا قائلا: "**فكم من الفرق بين أن يُعْلَمَ حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما، وبين أن يكون (الإنسان) صحيحا وشبعان وبين أن يعرف حد السكر. . وبين أن يكون سكران، بل السكران لا يعرف حد السكر. . والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة. كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا**"[1]. فالصوفية إذا على حد تعبير الغزالي نفسه "**أرباب الأحوال، لا أصحاب أقوال**"[2]

1ـ المصدر نفسه، ص82.

2- المصدر نفسه، والصفحة.

أقبل الغزالي بكنه همته على طريق الصوفية، انتهت بذلك أزمته الروحية التي عاناها، وكان الغزالي بذلك صادقا مع نفسه، فلم يخدعها، فضرب بذلك مثلا رائعا لكل من يريد التكمل الخلقي والروحي.

والمتأمل فيما كتب الغزالي عن التصوف يرى أنه جعل منه علما بمعنى الكلمة، فهو يكتب فيه بإسهاب وعمق، ويحدد قواعده في دقة منهجية، ويضع آدابه العملية في صورة مفصلة، لا نجد لهذا كله مثيلا عند من تقدمه من الصوفية.

ويمكننا القول بأن الغزالي يتصور طريقا إلى الله بدايته مجاهدة النفس، ثم تترقى النفس بالمجاهدة في مقامات هذا الطريق وأحواله لتصل في النهاية إلى الفناء والتوحيد والمعرفة والسعادة. وفيما يلي بيان ذلك:

1- الطريق: إذا كان الغزالي قد سجل تطور حياته الروحية في "المنقذ من الضلال" فإنه قد سجل وصفه لطريق التصوف في (إحياء علوم الدين)، بحيث يمكن القول أن هذا الكتاب كله –على ضخامته– وصف لطريق السالك إلى الله من حيث بداياته ومراحله المختلفة ونهاياته.

ويجعل الغزالي (إحياء علوم الدين) سجلا ممتازا لكل آرائه في هذا السبيل، وقد جاء مرتبا على أربعة أقسام رئيسية ترتيبا مقصودا، وهي: العبادات، العادات، المهلكات، المنجيات، وفي كل قسم تحليل رائع لكل ما ينطوي عليه من أمور تتصل به، وفي الأقسام مجتمعة رسم الطريق الصحيح الذي ينبغي على السالك أن يسلكه وهو في طريقه إلى الله، وهذا ما وضحه قائلا: " والعلم بآفات الطريق وغوائله، وجميع ذلك قد أودعناه كتاب (إحياء علوم الدين) الأقسام (الأربعة)، فيعرف (السالك للطريق) من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه، فيأخذه بأدب الشرع، وما هو مستغني عنه فيعرض عنه، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة من طريق الله، فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق، فيعلم المذموم، ويعلم طريق علاجه ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي ولابد أن توضع خلفا للمذمومة بعد محوها.

وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا معه حتى تقوى به الإرادة، وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها". [1]

ويؤكد الغزالي هنا في" الإحياء" على علم "المعاملة" في مقابلة علم "المكاشفة" وهذا العلم في نظر الغزالي، ينقسم إلى ظاهر وباطن: والظاهر هو العلم بأحوال الجوارح، والباطن هو العلم بأعمال القلوب، وما يجري على الجوارح إما عادة أو عبادة، كما أن الوارد على القلوب من أخلاق النفس فيه ما هو محمود وهو المنجيات، وما هو مذموم وهو المهلكات، فكان المجموع بذلك أربع أقسام[2].

ظهر من خلال هذا التحليل السريع أن الغزالي صاحب منهج عملي، قائم على المجاهدة، يسعى إلى غاية أخلاقية، ولكن هذه الغاية وسيلة لغاية أكبر منها، هي المعرفة التي تشرق على القلب بعد صفائه، وإذن فالطريق"**تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار (للمعرفة)** "[3]

ومدار الطريق عند الغزالي إذن على رياضة النفس أخلاقيا، ويرى بأن طب القلوب مقدم على طب الأبدان، لأن أمراض الأبدان تؤدي فقط إلى فوات هذه الحياة، أما أمراض القلوب فتفوت على الإنسان حياة الأبد، وهذا النوع من طب القلوب "واجب تعلمه على كل ذي لب، إذ لا يخلو قلب من القلوب على الأسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة عللها وأسبابها، ثم إلى تشمير في علاجها

1- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج1، ص 11.

2ـ الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج1، ص12.

3- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص27.

وإصلاحها، فمعالجتها هو المراد لقوله تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا" [1]، وإهمالها هو المراد بقوله: "وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" [2]. [3]

ويظهرنا الغزالي على مقتضيات الممارسة التخليقية، فمنها ضرورة التزام السالك بالأخذ عن شيخ، وفي هذا المعنى يقول: "و المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ، يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فسبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه"[4]

و"ليتمسك بشيخه تمسك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه. [5]

و لا بد للشيخ المربي من أن يراعي الفروق الفردية بين المريدين، فلا يشير عليهم بنمط واحد من الرياضة، وإلى ذلك يشير الغزالي بقوله: "فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطب نفوس المريدين، ويعالج قلوب المسترشدين، ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص، وفي طريق مخصوص، ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد، وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة، ويبنى على ذلك رياضته"[6]

وقد وضع الغزالي قواعد للسلوك تقوم بها قلوب المريدين، وهي كلها مرتكزة على أساس شرعي، كالتزام الخلوة والصمت والجوع والسهر، وهذا من أجل إصلاح القلب

1- سورة الشمس، آية 9.

2- سورة الشمس، آية 10.

3- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص67.

4- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص103.

5- الغزالي، إحياء علوم الدين، مصدر سابق)، ج3، ص103_ 104، وانظر أيضا: ج3، ص 88

6- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص84.

ليشاهد به ربه، لأن القلب في تصور الغزالي كالمرآة الصقيلة، لا تتجلى فيه الأنوار إلا عند تفريغه من الشواغل الدنيوية وليس مقصود الغزالي بالطبع الازورار كليا عن الدنيا، كما يفهم ذلك البعض، ولكن إذا كان السالك لا يترقى في مدارج العروج إلا بهذا، فلا حيلة في تركه.

وقد تأثر صوفية الطرق فيما بعد بقواعد السلوك التي وضعها الغزالي في هذا الصدد، خصوصا الشاذلية، وبهذا يكون أثر الغزالي فيمن جاء بعده غير قاصر عل نظريات التصوف، وإنما هو يتجاوزها إلى آدابه العملية.

2- المعرفة أو الحقيقة: يتميز الغزالي عمن سبقه من الصوفية بأنه، جعل التصوف طريقا إلى المعرفة بالله، واضح المعالم والحدود، وهو قد أفاض في مصنفاته المختلفة في التصوف، وأبرزها "إحياء علوم الدين"، في الكلام عن المعرفة الصوفية من حيث أدائها ومنهجها وموضوعها وغايتها، مقارنا بينها وبين معرفة غير الصوفية من النظار المعتمدين على مناهج العقل، والغزالي في هذا كله يستخدم ثقافاته المتنوعة، ومن هنا يمكن اعتبار نظريته في المعرفة نظرية متكاملة إذا قورنت بما خلفه السابقون عليه فيها من أقوال متفرقة، كما اعتبرت هذه النظرية تطورا ملحوظا في التصوف الإسلامي.

ويرى الغزالي أن المعرفة بالله فطرية[1]، وهي مركوزة في القلب "فكل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق، لأنه أمر رباني شريف، وهو محل الأمانة التي حمّلها الله له، وهي الغاية الحقيقية من الخلق قال تعالى: " **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**"، وفي تفسير ابن عباس إلا ليعرفون وهذه المعرفة.

أ_ لها بدايات من الإشراقات والمواجيد التي قد تبدأ مع المراحل الأولى للسالك يقول: الغزالي: "ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات. . . ثم يترقى الحال من مشاهدة

1- الغزالي، **الرسالة اللدنية**، ضمن **مجموعة رسائل الغزالي**، ط، بيروت: دار الفكر، 2000، ص233.

الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول أحد أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه"[1].

وهذه الحال التي يرتقي إليها السالك ويعجز عن وصفها هي حالة القرب الروحي، أو الفناء والاضمحلال، أو الاستغراق والإصطلام، أو التدكدك والصعق، التي تبدو كأنها لون من الإتحاد لا يعني تحول العبد إلى رب أو العكس، "**فالرب رب، والعبد عبد، فلا تخالط ولا تغالط**" على حد تعبير ابن عربي، ولكنه لون من الشهود المتعالي على الوصف والبيان بالوسائل البشرية، والذي قد تطيش بسببه مدارك العارف فيصدر عنه ما يستنكر ظاهره مما يصفه الغزالي بقوله: ". . . وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ، وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب (المقصد الأسنى)، بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر"[2]

ب_ هذه التجربة – تجربة الشهود أو الاتصال أو الفناء أو التوحيد– تثمر معارف يقينية بكل الحقائق الدينية التي سبق للسالك أن قبلها قبولا أو حتى أثبتها ببراهين العقل الرسمية الشكلية. . . ولكنه اليوم يراها بغير طريق العقل وبغير طريق النقل، ببركة تغلغله في العمل الشرعي وممارسته له.

هذا الطريق الخاص في المعرفة هو ما يعرف بالعلم اللدني الذي يصفه الغزالي أيضا في "الرسالة اللدنية"[3]: (. . . الطريق الثاني – من طرق التعليم – وهو التعليم الرياضي على وجهين:

1– الغزالي، **المنقذ من الضلال**، تح: عبد الكريم المراق، ص 88.

2 – الغزالي، **المنقذ من الضلال**، تح: عبد الكريم المراق، ص 88–89.

3– الغزالي، **الرسالة اللدنية**، ضمن **مجموعة رسائل الغزالي**، (مصدر سابق)، 232.

الوجه الأول: إلقاء الوحي، وهو أن النفس إذا كملت فإنها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل. . . وتقبل بوجهها على بارئها. . . والله تعالى بحسن عنايته لها يقبل على تلك النفس إقبالا كليا، وينظر إليها نظرا إلهيا ويتخذ منها لوحا ومن النفس الكلي قلما ينقش فيها جميع العلوم. . . فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر، ومصداق هذا قوله تعالى لنبيه ﷺ "**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ**"[1]. فتقرر عند العقلاء أن العلم الغيبي المتولد عن الوحي أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة. ونص الغزالي على انقطاعه "وصار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل، وأغلق الله باب الوحي من بعد سيدنا محمد ﷺ وكان رسول الله ﷺ خاتم النبيين"[2]

الوجه الثاني: هو الإلهام، والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها. والإلهام أثر الوحي، فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي، والإلهام هو تعريضه، والعلم الحاصل عن الوحي يسمى "علما نبويا"والحاصل عن الإلهام يسمى علما لدنيا، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري وإنما كالضوء من سراج للغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف. . . . . فالوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء). وفي كلام الغزالي الأخير إشارة إلى آية النور وهو قوله تعالى: " **لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**"[3].

ج- الأداة الرئيسية في حصول هذا العلم ليس هو الطريق المعهودة في التعلم والتعليم، وإنما هي تصفية "القلب"عن طريق الذكر والعبادة والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وهذا القلب عنده يعني مجموع القوى الإدراكية للإنسان أو الجهاز المعنوي الروحي للإنسان وهو أربع مستويات: الصدر والقلب والفؤاد واللب.

1-النساء، الآية: 113.

2- الغزالي، **الرسالة اللدنية**، ضمن **مجموعة رسائل الغزالي**، ط، بيروت: دار الفكر، 2000، ص232.

3_ النور، الاية، 40.

ويقابل العلم اللدني عند الغزالي الاستدلال العقلي الذي ينتقل فيه الذهن من معنى إلى معنى، أومن مقدمات إلى نتائج، عند المتكلمين والفلاسفة، فالمعرفة "قد تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضهم بتعلم واكتساب" [1] فالصوفية "انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا، والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له" [2] و"كل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم، فهي بطريق الكشف والإلهام". [3]

ويصف الغزالي الكشف أحيانا بالنور، ويعتبره أرقى مناهج المعرفة، وهو يقسم العارفين من حيث معرفتهم ومناهجهم فيها إلى ثلاثة درجات. [4]

فهناك إنسان عامي منهجه في المعرفة التقليد المحض، وهناك المتكلم الذي منهجه الاستدلال العقلي، ودرجته في رأي الغزالي قريبة من درجة العامي، وهناك بعد هذا وذاك العارف الصوفي الذي منهجه المشاهدة بنور اليقين.

وهو يمثل المناهج هؤلاء قائلا: إن العامي إذا أخبره من هو أهل للثقة بأن رجلا في الدار، صدقه، ولم يخطر بباله خلاف ذلك والمتكلم مثله كمن سمع كلام رجل في الدار فاستدل بذلك على وجوده فيها، والصوفي مثله كمن دخل الدار فشاهد الرجل فيها، وهذه المشاهدة هي المعرفة الحقيقية. وعلى ذلك فإيمان الصوفية ينطوي فيه إيمان العوام والمتكلمين.

ويرى الغزالي أن موضوع المعرفة الصوفية ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وهو أسمى موضوع لأسمى معرفة، فيقول: "وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله، فيه

1- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص11.

2- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص27.

3- الغزالي إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص32.

4- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص21_22.

كمال الإنسان، وفي كماله سعادته، وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال"[1] على أن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله.

فما يتجلى من ذلك القلب هو الجنة بعينها عند قوم، وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق[2]. وغايات المعرفة عند الغزالي هي التخلق والحب لله والفناء فيه والسعادة.

3- **نظرية الغزالي في التوحيد:** التصوف الإسلامي جهد حيوي له جوانبه النفسية والفكرية والعلمية، التي يغلب عليها جميعا الطابع الروحي، ويهدف هذا الجهد إلى معرفة الله –عز وجل – والتحقق بتلك المعرفة مشاهدة ومكاشفة، لا استدلالا ومباحثة. ولكن هذا الجهد أو تلك التجربة تقوم على أساس معين أو تنطلق من قاعدة محددة، وهي عقيدة التوحيد التي هي شعار الإسلام وروحه المهيمنة على كافة أنظمته الإعتقادية والفقهية. . . هذا التوحيد – ولكن بمفهوم خاص ومذاق خاص لدى الصوفية – هو نقطة البداية وهو نقطة النهاية أيضا في طريق كل صوفي مسلم، والتوحيد عند هؤلاء القوم بحر خضم لا شاطئ له، لذلك عقد له صوفينا في "الإحياء" فصلا عرض فيه نظريته في هذا الصدد، وقد ميز الغزالي في التوحيد أربع مراتب:

1ـالمرتبة الأولى: هي أن يقول الإنسان بلسانه لا اله إلا الله ويكون قلبه حينئذ غافلا عن الله سبحانه.

2ـالمرتبة الثانية: أن يقول الإنسان: لا اله إلا الله مع تصديق قلبه بما ينطق به لسانه، لكن هذا التصديق القلبي حصل للمرء عن طريق التقليد، وهذا هو توحيد العوام.

3ـالمرتبة الثالثة من التوحيد هي تلك التي يرى الموحد فيها أن الأشياء لا توجد بغير الله وهي رتبة يصل الفرد فيها إلى هذا المقام بطريق الكشف الذي حدث له بواسطة النور الإلهي. هذه الرتبة في التوحيد هي رتبة المقربين، أولئك الذين يرون في الكثرة الوحدة، وفي الكون

1- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص12.

2- الغزالي، إحياء علوم الدين(مصدر سابق)، ج3، ص21.

والفساد صورة المحي المميت، وفي الفقر والغني صورة المعطي والمانع، وفي العز والمذلة صورة المعزل المذل. يقول الغزالي: إن هؤلاء "نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لائحة، وعاينوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة وناصحة. ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم وشاهدوه بغيب أرواحهم، ولاحظوا جلالة وجماله بخفي أسرارهم، وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم في اليقين وصفاء القلب ويضيف الغزالي أن هؤلاء سموا مقربين لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم.

4_أما الرتبة الرابعة فهي تلك التي لا يرى فيها الفرد الموجودات بل يرى الواحد الأحد، الفرد الصمد، وهذه الرتبة هي رتبة الصديقين، وهي رتبة تكون بالفناء في الذات الإلهية حيث لا يرى الفرد حينئذ نفسه لأنه يكون مستغرقا في التوحيد فانيا عن نفسه. إنه قد فني عن رؤية نفسه وعن رؤية الخلق بمشاهدة الحبيب، فالصديقون"رأوا الله سبحانه وتعالى وحده، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك فلم يروا في الدارين غيره ولا اطلعوا في الوجود على سواه، فإذا رأى الولي أو الصديق أي شيء فإنه يراه من حيث أوجده الله بالقدرة وميزه بالإرادة بناء على علمه سبحانه القديم"

وما يميز هذه الرتب فيما بينها أن الأول موحد باللسان فقط، أما الثاني فهو موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه، وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساخ. . . والثالث موحد بمعنى انه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا، إذا انكشفت له الحق كما هو عليه، ولا يرى فاعلا بالحقيقة الا واحدا. وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين، إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة. . . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد، وهذه هي الغاية القصوى

في التوحيد. فالأول كالقشرة العليا من الجوز والثاني كالقشرة السفلى والثالث كاللب والرابع كالدهن المستخرج من اللب[1].

والواقع إن فرق كبير بين أن يقول لي فرد أن زيدا في الدار فأصدقه وبين أن أذهب إلى الدار وأسمع صوته فيضاف إلى التصديق دلالة أقوى بوجوده، ثم إذا شاهدته وقابلته كانت هذه درجة أخرى من التصديق تعتمد على المشاهدة والمعاينة وهي بلا جدال أفضل من الدرجتين السابقتين، وهكذا الحال بالنسبة للتوحيد: توحيد باللسان ثم توحيد باللسان والقلب ثم باللسان والقلب والجوارح وأخيرا توحيد يفنى فيه الموحد فيمن يوحد[2].

ويرد الغزالي على من يعترض على توحيد المريدين أولئك الذين يقولون إنهم لا يشاهدون في الوجود كله إلا الواحد. . الخ من حيث أن هذا الرأي ينكر إننا نشاهد السموات والأرض والحيوانات والنباتات وكلها متعددة فكيف ينكر المريد ذلك كله ولا يراه؟

يرد الغزالي على ذلك بالقول: لاشك أنه يصعب على غير الواصلين فهم هذه الحالة، لان للواصلين منطقهم، ولغيرهم منطقهم. ولهذا فإن العارفين قد قرروا فيما بينهم، كل على حده، أن إفشاء سر الربوبية كفر، وإنهم ذهبوا إلى القول: صدور الأحرار قبول الأسرار. ورغم هذا فان الغزالي ـ بعد بيان هذه الصعوبات ـ يبين لمن يعترض على التوحيد بالمعنى السابق، إننا كثيرا ما نشاهد أشياء متعددة ونقول مع بواحديتها. أما إذا قلنا بكثرتها فالاعتبارات معينة وان قلنا بوحدانيتها فلاعتبار آخر. ويضرب الغزالي ذلك مثلا بالقول: إننا نقول الإنسان واحد مع إننا لو نظرنا إلى وجهه وجسده وأطرافه وعروقه وأحشائه لقلنا، إن هذا الواحد يتضمن كثرة فإن اعتبرنا نحن أبعاضه، إن صح التعبير، فإنه ليس واحدا بل أشياء كثيرة. أما إذا نظرنا إليه باعتباره إنسانا فهو واحد. وذلك يرجع كما يقول الغزالي إلى أننا في حالة الاستغراق نرى أنه فقط. أماإذا لم نكن مستغرقين فيمن ندركه أو نشاهده لقلنا أنه ليس

1- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج4، ص328ـ329.

2- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج3، ص22.

واحدا وإنما هو متبعض متكثر. هكذا حال العالم ومعه الله: إن اعتبرنا العالم وحده فهو متبعض متكثر متعدد، وان اعتبرناه مع الله فلا وجود له إلا بالله. . . وحينئذ سوف نتخطى ذلك كما سنرى، ونقول: لا وجود إلا لله[1].

ومن هذا حاله "هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث أنه عبد الله، فهذا هو الذي يقال فيه أنه فنى في التوحيد، وأنه فنى عن نفسه، وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا، فبقينا بلا نحن". [2]

ويرى الغزالي أن الواصل إلى المكاشفة قد خاض لجة الحقائق[3]، وعبر ساحل الأصول والأعمال، واتحد بصفاء التوحيد، وتحقق بمحض الإخلاص، فلم يبق فيه منه شيء أصلا، بل خمدت بشريته، وفنى التفاته إلى صفات البشرية بالكلية، وليس المقصود فناء جسده وإنما فناء قلبه، وليس المقصود بالقلب ذلك اللحم والدم بل السر اللطيف، "و هذا (الفناء) مقام من مقامات علوم المكاشفة، منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد، وقال: " أنا الحق" (يشير هنا إلى الحلاج). . وهو غلط محض يضاهي غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة إذا ظهر فيها لون الحمرة من مقابلها". [4]

والغزالي يخوم في الحقيقة فيما يسميه بعلم المكاشفة حول مشكلة الواحد والكثير، وهي مشكلة ميتافيزيقية أيضا يحاول أن يقدم لها حلا على أساس شعوري لا عقلي من قوله بأن الكثرة والوحدة أمران نستشعرهما بالنسبة للأشياء فيمكن أن ندرك الشيء الواحد على أنه كثير، كما يمكن أن ندرك الكثير على أنه واحد، فالوحدة ليست وجودية، وإنما شهودية، وإذا هي شعور يتم عند الصوفي في حال الفناء.

1- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج4، ص330.

2- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج4، ص330. وقارن أيضا ج4، ص 256

3- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج2، ص256

4- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج2، ص256

ويرى الغزالي هذه المرتبة الرابعة أعلى المراتب لأن الموحد هنا "لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير، بل من حيث أنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد".

ويفترض الغزالي أن معترضا عليه قول: " كيف يتصور أن لا يشاهد (الصوفي) إلا واحدا، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة، وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحد؟"[1]

ويجيب على هذا الاعتراض قائلا في عبارات واضحة للغاية: " اعلم أن هذه الغاية علوم المكاشفات، وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة، نعم ذكر ما يكسر سورة [2]استبعادك ممكن، وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار.

وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد، إذ تقول أنه إنسان واحد فهو بالإضافة على الإنسانية واحد، وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه، وتفصيل روحه وجسده وأعضائه، والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق، مستغرق بواحد ليس فيه تفريق، وكأنه في عين الجمع، والملتفت إلى الكثرة في تفرقة.

فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة ومختلفة، فهو باعتبار من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخر سواه كثير، ومثال الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا". [3]

1- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج4، ص330.

2- سورة الشيء شدته.

3- الغزالي، إحياء علوم الدين، ((مصدر سابق)، ج4، ص 330.

وينبه الغزالي المعترض إلى خطأ الإنكار فيقول: "فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الإيمان عليه، هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس". [1]

يتبين مما سبق أن الغزالي حريص كل الحرص على الملائمة بين الفناء والعقيدة الإسلامية في التوحيد، فهو لا ينطلق كأصحاب وحدة الوجود إلى القول بأنه ما ثم غير، وإنما يجعل الوحدة التي تتم في حال الشهود غير منافية للكثرة، ويميز بين وجود الله ووجود العالم.

4- نظرية السعادة:

تعتبر السعادة غاية نهائية للطريق الصوفي عند الغزالي، وهي ثمرة المعرفة بالله. وقد خصص الغزالي رسالة لنظرية السعادة هي رسالة، "كيمياء السعادة" كما عرض لهذه النظرية بالتفصيل أيضا في مواضع متفرقة من "الإحياء".

ويتميز الغزالي عمن سبقه من الصوفية بأن جعل من السعادة نظرية متكاملة، ولم يكن من قبله قد تناولوها بالتفصيل، وإنما تحدثوا من خلال حالي الطمأنينة والرضا كما سلفت إليه الإشارة.

وهو يرى أن طريق السعادة هو العلم والعمل به، وإلى ذلك الإشارة بقول: " إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه، فيكون مطلوبا لذاته ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة، وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل. ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم". [2]

1- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج4، ص 305.

2- الغزالي، إحياء علوم الدين، (مصدر سابق)، ج1، ص. 12

ويتجلى هنا كيف ارتكز تصوف الغزالي على أساس من الشرع، فالعلم بالأحكام الشرعية لازم لوقوع العمل موقعه الصحيح، وعلى هذا فمجرد العلم بغير العمل، لا يوصل إلى السعادة، كما أن العمل الذي لا يقوم على العلم هو كذلك أيضا لأن الغزالي كان مدركا من" **أن السبيل الذي ينحدر من الله هو وحده الذي يقود إليه** "[1]. ، ومن هنا فلا مكان عنده لمن يقولون بسقوط التكاليف الشرعية، ولا مكان أيضا لمن يقوم تصوفهم على الهوس والخبال العقلي، من ثم نلاحظ أن الغزالي كان مصلحا في هذا المجال، بقدر ما كان مقررا لهذا النوع من التصوف المتقيد بالكتاب والسنة.

والغزالي في عرضه لنظريته في السعادة يظهر براعة في التحليل، قائمة على نوع من التحليل النفسي إذ هو يرتب على كل نوع من أنواع المعرفة نوعا من اللذة أو السعادة [2].

وسعادة كل شيء في رأيه هي لذته وراحته، ولذته تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له هذا الشيء، فلذة العين مثلا في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وهكذا الشأن في سائر الجوراح، كل جارحة منها لها لذة معينة[3].

ولذة القلب الخاصة معرفة الله، وهو مخلوق لها، واللذة ثمرة المعرفة لأن الإنسان إذا عرف شيئا لم يعرفه من قبل فرح به، كالشطرنج مثلا إذا عرفه الإنسان لم يتركه و لم يكن له عنه صبر، فكذلك الأمر بالنسبة لمعرفة لله إذا وقعت في القلب فرح العارف بها و لم يصبر عن المشاهدة.

ويرى الغزالي أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله ولا يتصور أن يؤثر الإنسان عليها لذة أخرى إلا إذا حرم من هذه اللذة، وذلك لأنه إذا كان" المعروف أجل كانت المعرفة أكبر،

---

1 - سيد حسين نصر، **التصوف بين الأمس واليوم**، تر: كمال اليازجي، ط1. بيروت: الدار المتحدة للنشروالتوزيع1971م، ص38.

2- الغزالي، **كيمياء السعادة**، ضمن **مجموعة رسائل الغزالي**، ط، بيروت: دار الفكر، 2000، ص232ص 420

3- الغزالي، كيمياء السعادة، (مصدر سابق)، ص 426.

وإذا كانت المعرفة أكبر، كانت اللذة أكبر، ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو علم بالملك لكان أعظم فرحا، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى، لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته، فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة ألذ من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته". [1]

ويضاف إلى ما تقدم أن اللذات المتعلقة بالجوارح الظاهرة تبطل بالموت ولا كذلك اللذة أو السعادة الحاصلة من معرفة الله، فإنها لا تبطل أبدا، بل أنها في الموت تكون أقوى لخروج الإنسان من الظلمات إلى النور. [2] والإنسان لا ينعم فقط بمعرفة الله حال الموت، وإنما هو ينعم أيضا بها في حال البقظة حين يصبح قادرا على أن يبصر ما يبصره في النوم، فيشاهد الحقائق العليا، وينكشف له عالم الملكوت، وذلك لا يتهأ له إلا بالانصراف عن شواغل المادة والحس واللذات الفانية[3].

فالكيمياء الحقيقية[4] في خزائن الله، ومحلها قلوب الأولياء العارفين لا تتحقق إلا بأن ترجع من الدنيا إلى الله، وسبيلها الاقتداء بالنبي ﷺ، وكل من يطلبها من غير هذا الطريق فقد ضل، وتوهم أنه غني وهو مفلس[5].

الغزالي كما أرى: إن الإمام الغزالي –ولاريب– من زعماء التاريخ الإنساني الذين يعالجون مرتبك الأفكار، ومتشابك الآراء فيجلون غامضها ويحلون معقدها، ويضعون للفكر والنظر الإنساني نهجا واضحا مستقيما.

1- الغزالي، كيمياء السعادة، (مصدر سابق)، ص 426.

2- الغزالي، كيمياء السعادة، (مصدر سابق)، ص 426.

3- الغزالي، كيمياء السعادة، (مصدر سابق)، ص 425.

4- المقصود بالكيمياء عند القدماء صنعة تحويل المعادن إلى ذهب أو فضة والغزالي يطلق الكيمياء هنا على تحويل الإنسان من الخلق الرديء إلى الخلق الطيب، هذه الكيمياء لا الكيمياء الظاهرية، هي الجديرة بالإنسان.

5- الغزالي، كيمياء السعادة، (مصدر سابق)، ص419.

كما أنه أحد العباقرة الذين جمعوا بين الريادة الفلسفية والموسوعية الفقهية والنزعة الصوفية الروحية، فكان الغزالي فيلسوفا وفقيها وصوفيا وأصوليا، يحكمه في كل تلك العلوم إطار محكم من العلم الوافر والعقل الناضج والبصيرة الواعية والفكر الراشد، فصارت له الريادة فيها جميعا، وأصبح واحدا من أعلام المسلمين الموسوعيين المعدودين.

والغزالي مثل كثير من العظماء الذين يبرزهم القدر، فيحركون سواكن المجتمعات، بما يحدثون فيها من تغيير في الفكر أو السلوك، في العقيدة أو العمل، ويتركون بصامتهم على حياتها المعنوية أو المادية، الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية.

وتتبدى إسهامات الغزالي النوعية في محاولته الظافرة في احتواء التجربة الصوفية في الإسلام، وتطهيرها من حركة الدخلاء ورد الحركة إلى مقولة الجنيد البغدادي (ت 297ه) "علمنا مقيد بالكتاب والسنّة، فمن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يعتد به في هذا الشأن" مما أعان على تصفية التجربة من الكدورات التي لحقت بها، كما أبعد عن ميدانها كل أثر للنزعات الباطنية التي أرادت الكيد للإسلام عن طريق الظاهر والباطن أو عن طريق التأويل.

والواقع أن هذا العمل الذي قام به الغزالي يمثل في نظري تجديدا خارقا في تطور الفكر الإسلامي، فقد كسب الإسلام السّني التصوف ورجاله، ونشأت علاقة حميمة بين الأشاعرة والتصوف بلغت به منتهاها استطاع التصوف بذلك أن يتغلغل في أعماق الثقافة الإسلامية وهكذا اكتسب التصوف القبول في نطاقات عريضة، ومستويات مختلفة بين المثقفين المسلمين، سواء كانوا عقلانيين أو نصيين.

وترجع أهمية الغزالي في التصوف الإسلامي إلى عدة أمور أهمها أنه أثار بقوة مشكلة **"الشك المقدس"** على حد تعبير مرتضى مطهري، فلم يجفل بالأساليب التقليدية للمعرفة الدينية كما هو الشأن عند الفلاسفة والمتكلمين من المعتزلة الذين ظنوا الدين مجموعة من الأنساق العقلية وغاب عنهم أن الدين حقيقة حيوية وتجربة حية، لها مجال حقيقي للمعرفة

كأي ضرب آخر من أنواع التجربة الإنسانية، واستطاع بجدارة واستحقاق أن يحدد معالم هذه التجربة تحديدا لم يسبق إليه، فأعطى للإسلام في عصره وبعد عصره ذوقا جديدا وعمقا بعيدا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان الغزالي صوفيا إيجابيا عنى بشئون عصره، فقد وقف في وجه المذاهب الفكرية المنحرفة بقوة، ونقدها نقدا علميا دقيقا، كما نلاحظ ذلك في ردوده القوية على الفلاسفة والباطنية وغيرهم من أصناف المغترين من الصوفية كأهل الشطح منهم، وكان من الممكن لهذه المذاهب أن تقوض دعائم المجتمعات الإسلامية في عصره وبعده لو تركت وشأنها.

وأمر آخر يثير الإعجاب بشخصية الغزالي، وهو أنه مفكر عاش آراءه، فلم يكن ثمة فجوة بين ما يعتقد وما يسلك ويعتبر تصوفه صورة لحياته، وحياته صورة لتصوفه، وكان في كل مراحل تطوره الروحي صادقا مع نفسه صدقا لا يتطرق إليه شك في نظرنا.